آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال
(١٨)



مطبوعات المجمع

الفوائد

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١)

تحقيق
محمد عزير شمس

إشراف
بكر بن عبد الله أبو زيد

تمويل
مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

راجع هذا الجزء

جديع بن محمد الجديع

محمد أجمل الإصلاحي

علي بن محمد العمران



مؤسسة سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية
SULAIMAN BIN ABDUL AZIZ AL RAJHI CHARITABLE FOUNDATION

الطبعة الاولى ١٤٢٩هـ



دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع
مكة المكرمة ص.ب ٢٩٢٨ هاتف ٥٥٠٥٣٠٥ فاكس ٥٥٤٢٣٠٩

الصف والإخراج دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فهذا كتاب من أروع ما وصل إلينا من مؤلفات الإمام ابن القيم رحمه الله، جمع فيه ألوانًا من الفوائد واللطائف والعبر والمواعظ والنكت والدقائق والملاحظات والأفكار في فنون مختلفة، ولم يُرتِّبه على الموضوعات والأبواب، ويبدو أنه خصَّص كُنّاشًا أو دفترًا لتسجيل هذه الخواطر والفوائد المتفرقة، وأدرج فيه ما استحسن منها في فترات مختلفة من حياته. وطريقته فيه أنه يبدأ كلّ فائدة وبحث بكلمة: فصل أو قاعدة أو فائدة أو تنبيه، ويورد تحتها من بنات فكره أو من الكلمات المأثورة عن السلف أو من الأبيات والحكم المنثَورة ما يعتبرها خير معين لمن يريد طريق النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

ويحتوي الكتاب على موضوعات عديدة في التوحيد والعقيدة، فيذكر أن معرفة الله تحصل بالنظر في مفعولاته والتفكر في آياته وتدبرها (ص٢٨)، وأتمّ الناس معرفةً به من عرفه بكماله وجلاله وجماله (ص٢٦٤)، ومعرفة الله نوعان: معرفة إقرار يشترك فيها المطيع والعاصي، ومعرفة توجب الحياء منه والمحبة له والإنابة إليه، وهي المعرفة الخاصة (ص٢٤٨). وبيَّن المؤلف تفاوت الناس في التوحيد (ص٢٨٢) وفوائد التوحيد في الدنيا والآخرة (ص٧٢) وأن راحة القلب والبدن في طاعة الله (ص٢٩٣)، وذكر معنى العبودية (ص٣١) ومراتبها (ص١٦٣) وثمرة الإيمان بالصفات الإلهية (ص٩٨) والتوسل بأسماء الله

الحسنى (ص٣٦)، وحقيقة التوكّل وأنواعه (ص١٦٥، ١٢٤)، وتعرض لموضوع القضاء والقدر (ص٣٣) والرزق والأجل (ص٧٩) وأن النعم كلها من الله والذنوب من الشيطان (ص٢٩٦) وأن شفاعة الرسول ﷺ تُنال بطاعته (ص٢٢٦). إلى غير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بالتوحيد.

وهناك أبحاث جليلة في التفسير وعلوم القرآن، منها بيان شروط الانتفاع بالقرآن (ص٣) وأنواع هجر القرآن (ص١١٨) وتأملات في سورة الفاتحة (ص٢٦) وسورة ق (ص٥) وسورة التكاثر (ص٤٣) وتفسير آيات عديدة (ص٢٣، ٣٣، ١١٤، ١١٥، ١٢٧، ١٣٠، ١٤٦، ١٩٩، ٢٣٧، ٢٤٦، ٢٥٩، ٢٧٣، وغيرها).

وهو يشرح أحيانًا بعض الأحاديث، مثل حديث ابن مسعود في الهم والحزن (ص٣٠) وقوله ﷺ: «الإسلام علانية والإيمان في القلب» (ص٢٠٧) وقول الله تعالى لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم» (ص ٢٠) وقوله ﷺ: «فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» (ص٨١) وقوله ﷺ: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفِّر اللسان» (ص٨١).

وتكلم على مسألة أصولية كلامًا طويلاً، وهي أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي، وقرر ذلك من وجوه كثيرة (ص ١٧١).

وفي الكتاب فصول مهمة عن فضائل العلم (ص١٥١) وأنواعه وآفاته (ص١٢٢) ومراتب العلوم (ص٨٤)، وصفات علماء السوء (ص٨٥) وتحذير العالم من الدنيا والركون إليها (ص١٤٥).

أما الحديث عن أعمال القلوب وأسباب الذنوب والمعاصي وآثارها والأخلاق المحمودة والمذمومة والنصائح والمواعظ والعبر واللطائف

والإشارات والرقائق والزهد فهي تحتلُّ مكانًا بارزًا في الكتاب.

وبالجملة فالكتاب مليء بالفوائد، وسُمِّي حقًّا بكتاب «الفوائد». وهو يختلف في موضوعاته وأبحاثه عن «بدائع الفوائد»، فكتاب «الفوائد» كما رأينا: أكثره تأملات وخواطر، وعبر ومواعظ، ولطائف ورقائق، ويقل فيه النقل عن المصادر الأخرى، بينما كتاب «البدائع» يحتوي على مسائل علمية من فنون مختلفة مع تحقيق وإطالة نفس، ويكثر فيه النقل عن العلماء ومصنفاتهم مع التعليق عليها. ويوجد موضع واحد وقع فيه الاتفاق بين الكتابين في النقل عن «المدهش» لابن الجوزي بدون عزو[١].

*** تحقيق عنوان الكتاب ونسبته إلى المؤلف:**

طبع هذا الكتاب لأول مرة في المطبعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٤٤ بعناية الشيخ محمد منير الدمشقي، وسماه الناشر كتاب «الفوائد». ولم يذكره المترجمون لابن القيم في القديم، ولم يشيروا إلى تأليف له بهذا العنوان في مصادر ترجمته، وإنما اشتهر الكتاب بعد طباعته، ثم ذكره من ترجم له من المحدثين.

ويوجد الأصل الوحيد للكتاب ضمن «الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري» (لابن عروة الحنبلي المتوفى سنة ٨٣٧) المخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم [٥٦٧] (المجلد ٣٩، الورقة ١٤٥أ ـ ٢٠٠ب)، وقد عنون له ابن عروة بقوله:

---

(١) تكلم أخونا البحاثة المحقق علي العمران عن العلاقة بين الكتابين في مقدمة تحقيقه لبدائع الفوائد (١/ ٢٤ ـ ٢٥)، فأغنانا عن الإعادة.

«فوائد شتى ونكت حسان من تفسير آية أو حديث أو أثر سلفي، تتعلق بعلم التوحيد القولي العلمي والعملي الإرادي». ثم قال: «وهي من كلام الشيخ الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين بحر العلوم أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الشهير بابن قيم الجوزية». ثم قال: «وهي غير بدائع الفوائد له، وهي إما فائدة تعود إلى معرفة أو سلوك، أو تحذير من قاطع، أو تنبيه على مقصود».

ومعنى ذلك أن هذا الكتاب لم يكن له عنوانٌ محدَّد، وإلا ذكره ابن عروة، ولم يقل: «فوائد شتى ونكت حسان. . .». ولما نشره محمد منير الدمشقي اختصر هذه العبارة الطويلة وسمَّى الكتاب «الفوائد»، ولا غبار عليه فإنه مطابق لمحتوياته، ولذا أبقيناه نظرًا لشهرته لدى القراء والباحثين.

ثم إن ذكره الصريح للإمام ابن القيم يقطع الشك في صحة نسبته إليه، وابنُ عروة من أعرف الناس بآثار شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقد احتفظ لنا بنصوصٍ كثيرة منها وفرَّقها في مواضع مختلفة من موسوعته «الكواكب الدراري» لأدنى مناسبة، وبعض هذه الآثار لم تصل إلينا إلاّ من طريقه. وهو على دراية تامة بمحتويات الكتاب، والفرق بينه وبين بدائع الفوائد، كما يظهر ذلك من وصفه للكتاب. ولهذا فنحن مطمئنون إلى صحة نسبته لابن القيم.

وإذا نظرنا في الكتاب وجدنا فيه أمورًا أخرى تؤكِّد صحة نسبته إليه[1]، فالمؤلف يذكر في أثنائه ثلاثةً من مؤلفاته: «اجتماع الجيوش

(١) ذكر العلامة الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد بعض وجوه التوثيق في كتابه «ابن قيم =

الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» (ص٤)، و«المعالم» (ص١٠) والمقصود به «إعلام الموقعين عن ربّ العالمين»، و«كتابنا الكبير في القضاء والقدر» (ص٣٦) ويقصد به «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل».

ثم إنه يذكر شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عديدة منه بقوله: «شيخنا» (ص١٢، ١٣٦، ١٥٣)، وينقل عنه نصوصًا من كلامه، وهي معروفة له في كتبه التي وصلت إلينا، وقد أشرنا إليها في الهوامش.

وقد سبق أن هناك اتفاقًا بين هذا الكتاب و«بدائع الفوائد» في النقل عن «المدهش» لابن الجوزي، وهذا من الأدلة على كون مؤلفهما واحدًا.

ونجد في أثناء الكتاب تصريحًا باسم ابن القيم في مواضع مختلفة (ص٤، ١٣٦، ١٥٢)، وهذا إما أن يكون من المؤلف نفسه كما يفعل ذلك كثير من المؤلفين، وإما أن يكون من تلاميذه والناسخين لكتابه أو من ابن عروة الذي أدرج هذا الكتاب ضمن «الكواكب». وهذه إحدى القرائن القوية لنسبته إلى ابن القيم.

وأخيرًا فإن أسلوب الكتاب هو أسلوب ابن القيم في سائر كتبه، ولا يخفى ذلك على من قرأ مؤلفاته باهتمام، وخاصةً تلك المؤلفات التي تتعلق بالسلوك والزهد والتربية. وكثير من الموضوعات التي أوجزها هنا فصَّلها في كتبه الأخرى، وكأن مافي الكتاب خلاصة هذا النوع من مؤلفاته، اقتصر فيه على النكت المستحسنة والفوائد الغالية، وزاد عليها

= الجوزية: حياته وآثاره» (ص٢٨٤).

لطائف ودقائق وعبرًا ومواعظ لا توجد في غيره.

*** موارده:**

ذكرنا فيما سبق أن أغلب ما في الكتاب تأملات وخواطر وفوائد اهتدى إليها المؤلف بفكره، ولم ينقل إلاّ القليل من مصادر أخرى، وقد صرَّح أحيانًا باسم المؤلف أو المصدر الذي ينقل عنه، وأغفل أحيانًا أخرى ذكره. ومن المصادر التي نقل عنها:

ـ ابن قتيبة: ص ٣، ١١٦(من تفسيرغريب القرآن)، و١٤، ١٦، ١٢٩، ١٤٩(من تأويل مشكل القرآن).

ـ الزجاج: ص ١٩، ١١٦ (من معاني القرآن وإعرابه).

ـ الواحدي: ص ١٢٨، ١٣١(الوسيط).

ـ ابن الجوزي: ص٢١ (كشف مشكل الصحيحين). ونقل من كتابه «المدهش» كثيرا بلا نسبة، فأغلب النصوص في الصفحات ٥٢ ـ ٦٩ مأخوذة منه، وكذا في مواضع أخرى.

ـ ابن تيمية: ص١٢، ١٣٦، ١٥٣.

ـ وعزا بعض النصوص إلى كتاب الزهد للإمام أحمد (ص٧٥) وإلى كتاب الترمذي (ص٣٩)، ولا توجد فيهما، ويبدو أنه عزا إليهما من حفظه.

ـ وأغلب النصوص في فصل من كلام عبدالله بن مسعود (ص٢١١ ـ ٢١٨) منقولة من كتاب الزهد للإمام أحمد وحلية الأولياء لأبي نعيم، كما يظهر من هوامش التخريج.

هذه بعض المصادر التي استقى منها، ولكن الطابع العام للكتاب

كونه تأملات وخواطر وتصيُّدًا للفوائد والنكت. وهذا ما يُميِّز الكتاب عن الكتب الأخرى للمؤلف، ومن هنا تأتي أهميته.

*** وصف النسخة الخطية:**

ذكرنا فيما مضى أنه لا يوجد من الكتاب إلاّ نسخة فريدة ضمن «الكواكب الدراري» (مج٣٩) من الورقة ١٤٥ إلى الورقة ٢٠٠، في دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم [٥٦٧]، وناسخ هذا المجلد هو إبراهيم بن محمد بن محمود بن بدر الحنبلي، كتبه بخط نسخي سنة ٨٢٧. والنسخة واضحة الخط، نادرة الأخطاء، وعدد الأسطر في كل صفحة منها ٢٨ سطرًا، وهي مقابلة ومصححة، كما يظهر ذلك بالاستدراكات على هوامش النسخة وبالدوائر المنقوطة في أثناء الأسطر، وعلى النسخة بلاغات يقول فيها: بلغ مقابلة بأصله، أو نحو هذه العبارة. وعليها ختم مجاميع المدرسة العمرية.

وفي هذا المجلد عدة رسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية، نُشر بعضها ضمن «مجموع الفتاوى» وبعضها في مجاميع أخرى. ويبدأ كتاب «الفوائد» لابن القيم بقول ابن عروة: «فوائد شتى ونكت حسان. . . وهي من كلام الشيخ الإمام. . . ابن قيم الجوزية. . .»، وقد سبق نقل العبارة بتمامها فيما مضى. ثم بدأ كلام المؤلف بقوله: «قاعدة جليلة» دون أن يسبقه البسملة والحمد والمقدمة. وكأن المؤلف لم يفرغ من جمعه وترتيبه والتقديم له، ولذلك لم يرد له ذكرٌ في مصادر ترجمته، ولو لم يُدرِجه ابن عروة في موسوعته لضاع فيما ضاع من تراث ابن القيم.

* **الطبعات السابقة للكتاب:**

صدرت أول طبعة للكتاب في المطبعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٤٤ بعناية الشيخ محمد منير الدمشقي رحمه الله، وقد صرَّح فيها أنه اعتمد على نسخة «الكواكب». وعلى الرغم مما بذل الناشر من جهد مشكور في قراءة النص وتقديمه، فقد وقعت في هذه الطبعة أخطاء وتحريفات، وسقطت كلمات وأسطر في مواضع كثيرة، وزيدت على النص زيادات دون التنبيه عليها مع عدم الحاجة إليها. وأُلحق به نصٌّ لشيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير أول العنكبوت (ص ٢٠٧ ـ ٢١٢) دون الإشارة إلى أنه زيادة على كتاب ابن القيم. والواقع أنه نصٌّ خارج عن الكتاب، ولكنه موجود في مكان آخر من «الكواكب الدراري» [الورقة ٢٠٥أ ـ ٢٠٧أ] من النسخة السابقة. ولشدة حرص الناشر على طبع آثار شيخ الإسلام وغيره من علماء السلف ضمن «مجموعة الرسائل المنيرية» وغيرها، استنسخ هذه الرسالة وطبعها ملحقةً بكتاب «الفوائد» من باب الحفظ والإفادة، دون تمييزها عن أصل الكتاب، حتى توهَّم القراء والباحثون أنها جزء منه.

ولا أحبّ الخوض في ذكر الأخطاء والتحريفات والأسقاط والزيادات الموجودة في تلك الطبعة، ومن أراد معرفة ذلك فليقم بالمقابلة بينها وبين الطبعة التي بين يديه، أو بينها وبين الأصل ليعرف مدى الفرق بينهما. والناشر على كل حال مشكور لسبقه إلى نشر هذا الكتاب النفيس وتقديمه إلى المتعطشين للعلم لأول مرة، فجزاه الله أحسن الجزاء على ما قام به من خدمة للعلم وأهله.

ثم توالت طبعات الكتاب بالاعتماد على تلك الطبعة، وتسرَّبت إليها

جميعًا ـ بل زادت ـ تلك العيوب التي ذكرناها، لعدم رجوع القائمين عليها إلى الأصل المخطوط، ومن الغريب حقًّا أن يقوم المحققون بتحقيق الكتاب وتصحيحه وضبطه وتخريجه وخدمته وتقديمه بالاعتماد على الطبعات المتداولة، وهي أكثر خطأ وتحريفًا وسقطًا من الطبعة الأولى، مع أن الحصول على الأصل كان أسهل لهم من معاناة المقابلة بين الطبعات المختلفة والوصول إلى نصّ سليم في ضوئها! وتوجد مصورة «الكواكب» الآن في كثير من المراكز العلمية والجامعات الإسلامية، فكان الواجب الرجوع إليها عند إعادة طبع الكتاب.

*** هذه الطبعة:**

كان الاعتماد في إخراج هذه الطبعة على الأصل المخطوط الوحيد الذي سبق وصفه، وبمقابلة الطبعة الأولى على هذا الأصل صححتُ كثيرًا من الأخطاء والتحريفات الواقعة فيها واستدركتُ السقط الذي قد يتجاوز أكثر من سطر، وحذفتُ الزيادات التي زيدتْ على الأصل. وهكذا أصبح النصُّ مطابقًا للأصل دون زيادة أو نقص. وحذفتُ «تفسير أول العنكبوت» لشيخ الإسلام[1]، لأنه ليس من كتاب «الفوائد» كما ذكرتُ.

ثم رجعت إلى النصّ، وقمتُ بضبطه وتقسيمه إلى فقرات، مع الاهتمام بعلامات الترقيم، ليكون واضحًا مفهومًا لدى القراء.

ثم خدمتُ النصَّ بعزو الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث والآثار

---

(١) أعدتُ نشره في «جامع المسائل» (٣/ ٢٥١ ـ ٢٦١).

والنقول من المصادر، وتخريج الأشعار ونسبتها إلى قائليها. أما ترجمة الأعلام وشرح الكلمات والعبارات والتعريف بالأماكن فلم أهتمَّ بها، لأني أعتبرها من لوازم الشرح لا من متطلبات تحقيق النصّ.

وقمتُ بوضع فهارس متنوعة للكتاب، ليصل القارىء إلى ما يبحث عنه في أسرع وقت.

فدونك أيها القارىء كتابًا كلُّه درر وفوائد، وتبصرة وتذكرة، وإرشاد وتوجيه، ولعلك لا تجد له نظيرًا بين الكتب التي قرأتَها. أدعو الله أن يوفقني وإياك للتأمل فيه والاستفادة منه، إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

محمد عزير شمس

عنه وذاك المعنى في غيره أو ذاك المعنى في وصفه دون أصله ولكن قد يكون النهي لمعنى يختص بالعبادة
والعقد وقد يكون لمعنى مشترك بينها وبين غيرها كما نهي المحرم عما يختص بالإحرام مثل حلق الرأس ولبس
العمامة وغير ذلك من الثياب المعتادة ونهيه عن نكاح امرأته ونهيه عن صيد البر ونهيه مع ذلك عن
ظلم الناس فيما ملكوه من الصيد وغيره فالنهي لمعنى مشترك أعظم ولهذا لو قتل المحرم صيدا مملوكا وجب
عليه الجزاء لحق الله ووجب عليه بدله لحق المالك ولو زنا لأفسد إحرامه كما يفسده نكاح امرأته ولا يستحق
حد الزنا مع ذلك فعلى هذا من لبس في الصلاة ما حرم فيها وفي غيرها كالثياب التي فيها خيلاء وفخر
كالمسبل والحرير كان أحق ببطلان الصلاة من الثوب النجس وفي الحديث الذي في السنن أن الله لا يقبل
صلاة مسبل والثوب النجس فيه نزاع وفي قول النجاشي نزاع والصلاة في الحرير للرجال من غير حاجة حرام
بالنص والإجماع وكذلك البيع بعد النداء إذا كان قد نهي عنه وغيره يشغل عن الجمعة كان ذلك أوكد في
النهي وكل ما شغل عنها فهو شر وفساد لا خير فيه والملك الحاصل بذلك كالملك الذي لم يحصل إلا بمعصية
الله وغضبه ومقته كالذي لا يحصل إلا بغير ذلك من المعاصي مثل الكفر والسحر والكهانة والفاحشة وقد
قال النبي صلى الله عليه وسلم حلوان الكاهن خبيث ومهر البغي خبيث فإذا كانت الأملاك التي لم تملك إلا بترك الصلاة
المفروضة كان حصول الملك بسبب ترك الصلاة كما أن حصول الحلوان والمهر بالكهانة والبغاء وكما لو
قيل له إن تركت الصلاة اليوم أعطيناك عشرة دراهم فإن ما يأخذه على ترك الصلاة خبيث ولو
كان ما يملكه بالمعاوضة على ترك الصلاة خبيث ولو استأجر أجيرا بشرط أن لا يصلي كان هذا الشرط
باطلا وكان ما يأخذه من العمل الذي يعمله بمقدار الصلاة خبيث مع أن جنس العمل بالأجرة جائز كذلك
جنس المعاوضة جائز لكن بشرط أن لا يتعدى عن فرائض الله وإذا حصل البيع في هذا الوقت وتعذر
الرد فله نظير ثمنه الذي أداه ويتصدق بالربح والبائع له نظير سلعته ويتصدق بربح إن كان قد ربح ولو
تراضيا بذلك بعد الصلاة لم ينفع فإن النهي هنا حق لله فهو كالتراضي بمهر البغي وهنا يتصدق به على
أصح القولين لا يعطى الزاني وكذلك في خمر ونحو ذلك مما أخذ صاحبه منفعة محرمة فلا يجمع له بين العوض والمعوض
فإن ذلك أعظم إثما من بيعه وإذا كان لا يحل أن يباع الخمر بالثمن فكيف إذا أعطي الخمر وأعطي الثمن وإذا كان لا
يحل للزاني أن يزني وإن أعطى فكيف إذا أعطي المال والزنا جميعا بل يجب إخراج هذا المال كسائر أموال
المصالح المشتركة وكذلك هنا إن كان قد باع السلعة وقت النداء بربح [illegible] فإن كانت تصدق
بالربح ولم يعطه للمشتري فيكون إعانة له على الشراء والمشتري يأخذ ثمنه ويعيد السلعة فإن كان فيها ربح
تصدق به ولم يعطه للبائع فيكون قد جمع له بين ربحين وقد تنازع الفقهاء في المقبوض بالعقد الفاسد
هل يملك أو لا يملك ونفرق بين أن يفوت أو لا يفوت كما هو مبسوط في غير هذا الموضع ك

فوائد شتى ونكت حسان من تفسير آية أو حديث أو مسألة تتعلق بعلم التوحيد
القولي العلمي والعملي الإرادي وهي من كلام الشيخ الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين بحر العلوم أبي عبد الله شمس

الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الشهير بابن قيم الجوزية وهو غير بدائع الفوائد له وهي أمالي ذه
تعود إلى معرفة أو سلوك أو تحذير من قاطع أو تنبيه على مقصود قاعدة جليلة إذا أردت
الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه
فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله قال تعالى إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد
وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي
يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد فقوله إن في ذلك لذكرى إشارة
إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا وهذا هو المؤثر وقوله لمن كان له قلب فهذا هو المحل القابل والمراد
به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا أي حي القلب وقوله
أو ألقى السمع أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له وهذا شرط التأثر بالكلام وقوله وهو شهيد
أي شاهد القلب حاضر غير غائب قال ابن قتيبة استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل
ولا ساه وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه
وتأمله فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع
وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر
فإن قيل إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه فما وجه دخول أداة أو في قوله أو ألقى السمع والموضع موضع واو
الجمع لا موضع أو التي هي لأحد الشيئين قيل هذا سؤال جيد والجواب عنه أن يقال خرج الكلام بأو
باعتبار حال المخاطب المدعو فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة فإذا فكر بقلبه وجال
بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق وشهد قلبه بما أخبر به القرآن فكان ورود القرآن على قلبه
نورا على نور الفطرة وهذا وصف الذين قيل فيهم ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق
وقال في حقهم الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها
كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور
فهذا نور الفطرة على نور الوحي وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي قال ابن القيم وقد ذكرنا
ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية
فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه فهو يقرؤها عن ظهر قلب ومن
الناس من لا يكون تام الاستعداد واعي القلب كامل الحياة فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ولم
تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي فطريق حصول هدايته أن يفرغ
سمعه للكلام وقلبه لتأمله والتفكير فيه وتعقل معانيه فيعلم حينئذ أنه الحق فالأول حال من رأى
بعينيه ما دعي إليه وأخبر به والثاني حال من علم صدق المخبر وتيقنه وقال يكفيني خبره فهو في مقام الإيمان
والأول في مقام الإحسان هذا وقد وصل إلى علم اليقين وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين وذاك

بالنعما واستبدل لحمد الله وشكره والثناء عليه ذكر نعمه البلا وقوله ذهب السيات عني ولهذا قال اذهب الله
السيات عني برحمته ومنه لما ذم على ذلك بل كان محموداً عليه ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب اليها
وفرح وافتخر [illegible] فانه لا يجعل الا بالنسبة النعمة
للمطلقة التامة كما قال تعالى ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو اسمعهم
لتولوا وهم معرضون فاخبر سبحانه انه جعلهم غير قابلين للنعمة ومع عدم القبول ففيهم مانع اخر يمنع وصولها اليهم وهو
توليهم واعراضهم اذا عرفوها وتحققوها ومما ينبغي ان يعلم ان اسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه
في الاصل واهمالها وتخليتها فاسباب الخذلان منها وفيها واسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة فاسباب
التوفيق منه ومن فضله وهو الخالق لهذه وهذه كما خلق اجزاء الارض هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له
وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها وخلق النحل قابلا لان يخرج من بطونه شراب مختلف الوانه والزنبور
غير قابل لذلك وخلق الارواح الطيبة قابلة لذكره وشكره ومحبته واجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده
وخلق الارواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضده وهو الحكيم العليم ٥

قوله تعالى وربك يخلق ما يشا ويختار

ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ٥ ما في قوله ما كان لهم نفي وقيل هي مصدرية اي يختار
اختيارهم بمعنى مختارهم ٥ الاختيار الاصطفا وكذلك التخير وقوله تعالى ما كان لهم الخيرة اي الاختيار وتصغير مختار
مخير حذفت منه الالف لانها زائدة وابدلت من الياء لان الياء ابدلت منها في حال التكبير والاستخارة طلب خيرة يقال
استخر الله يخر لك وخيرته بين الشيئين اي فوضت اليه الاختيار والخيرة الاسم من قولك خار الله لك في هذا الامر والخيرة
مثل الخيرة الاسم من قولك اختاره الله يقال محمد خيرة الله من خلقه وخيرة الله ايضا بالتسكين فقوله تعالى
وربك يخلق ما يشا ويختار يخبر تعالى انه المتفرد بالخلق والاختيار وانه ليس له في ذلك منازع ولا معقب قال وربك
يخلق ما يشا ما شا كان وما لم يشا لم يكن فالامور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها اليه وقوله ما كان
لهم الخيرة نفي على اصح القولين كقوله تعالى وما كان لمومن ولا مومنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم
الخيرة من امرهم وقد اختار ابن جرير ان ما هنا بمعنى الذي تقديره ويختار لهم الذي فيه خيرة وقد
احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الاصلح والصحيح انها نافية كما نقله ابن ابي حاتم عن ابن
عباس وغيره فان المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار [illegible] وذلك
ولهذا قال سبحان الله وتعالى عما يشركون اي من الاصنام والانداد التي لا تخلق ولا تختار شيا ٥

قوله تعالى وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون

اي يعلم ما تكنه الضماير وما تنطوي عليه السراير كما يعلم ما تبديه الظواهر من ساير الخلايق سوا منكم من
اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ٥

فهرس